بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٨) دستورُ الأخلاق النَّبوية
طريقُنا إلى الصَّلاح والإصْلاح والأداء الحَضاري المتميّز (١)

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

كلَّما مرتِ الأيام والشهورُ والسنونُ والدهورُ ازدادَ عددُ المتعلِّقين بسيدنا محمد (ﷺ) والمنتَسبين له، والمتَسَمّين باسْمه في شتى أنحاء المعْمورة، ولمَ لا وهو رحمةُ الله للعالمين.. السراجُ المنير، الهادي إلى طريق الله المستقيم، النورُ المبين الذي أضاءَ اللهُ به العقولَ والقلوب والدُّروب.

لقد جاءَ النبيُّ الكريم (عليه الصلاة والسلام) برسالةٍ شريفة مشرَّفة، ومشرِّفة لمن هَداه اللهُ إلى اتِّباعها.. رسالة عظيمة القَدْر، رفيعة الشأن، عالية المقام، سامقة الجاه... ولمَ لا؛ فهي من لَدُن الحكيمِ الخبير، والناقلُ من الله مباشرةً (الوسيطُ بين الله (عزَّ وجلَّ) وبينَ النبي مَلَكٌ كَريم، والمنقولُ إليه (الوسيطُ بين الله تعالى وبينَنا) نبيٌّ مُختار مَعصوم، ومن ثمَّ فنحنُ مع النبي (ﷺ) في أمانٍ تام؛ عقولُنا في أمان، وقلوبُنا في أمان، وكلُّنا في أمان، ومعلوماتُنا من مصدر مَوثوق ليسَ فيه مثقالُ ذرَّة من شَك. ولقد ضمن اللهُ تعالى لنا عصمةَ عَقل نبيِّه، وعصمةَ قلبه، وعصمةَ فؤاده، وضمنَ لنا عصمةَ الرسالة حتى بعدَ وفاته عليه الصلاةُ والسلام؛ إذ أخذَ اللهُ تعالى العهدَ على نفسه بحفظِها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

لقد اصْطفاه ربُّه العظيم، وأعدَّه إعدادًا خاصًّا، يَتناسب مع عالميةِ الرسالة، ومدحَه بما منحَه؛ فقال تعالى في شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، فهو رسولُ الله تعالى.. ونبيُّ الرحمة، والخير، والإنسانية، والمحبة، والإخاء، والرشاد، والبناء، والصلاح، والإصلاح، والفلاح.. ورسولُ الحق، والعدل، والجمال، والنظافة، والنظام، والحرية، والمساواة، والسلام النَّفسي والروحي، والسَّلام بمعناه الشّامل... ورسولُ السَّكينة والرضا والتفاؤل والأمَل فيما عند الله.. وهو الرسولُ الذي جاءَ ليُبدد الظلام، ويُجابِه الغَطرسة والأنانية والظلمَ والجوْر والغرور، ويَضبط الغرائز.. وهو مَن أرسلَه ربُّه لضَبط حركة الإنسان، وحركة الحياة، وتَنظيم العلاقات الإنسانية على أسسٍ رَشيدة هادية، وإعداد الناس للقاءِ ربهم يوم القيامة.

عزيزي القارئ الكريم، إذا كان العالم –وما يزال– قد جرَّب نظرياتٍ وفلسفاتٍ متعدِّدة، ثبتَ فشلُها للعالمين؛ بل تسبَّب بعضُها في الاعتداء على الفِطرة السَّوية، والإضرارِ بالكون ومُفرداته، وازدواج المعايير، وتَغذيةِ الصراعات والحروب،... إلخ، فقد آنَ الأوانُ له أن يجربَ منهجًا آخرَ فيه النجاة، بل هو المسْعِف،

(١) راجع ذلك مفصلا: د/ أحمد علي سليمان: كيف نتوضأ بأخلاق النبوة؟، القاهرة، دار إشراقة، ١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م، ص ٥١-٥٤

والمنقِذ، وفيه العلاجُ الناجِع لمشكلات البَشرية التي عانتْها من قبل، والتي تُعانيها الآن، وتلك التي سوف تُعانيها في المستقبل.

القيمُ والأخلاقُ النَّبوية المحورُ الأساسُ للحضارة الإسلامية:

الأخلاقُ والقيمُ هي المعاييرُ المرجعية الحاكمةُ للفكر والسلوك والتربية، التي يُقاس عليها السلوكُ الإنساني الرشيدُ في المجتمع، ومن ثمَّ فهي جالبةٌ للخير، طاردةٌ للشَّر، والمحركُ للأفراد والشُّعوب نحو الوعي والرُّقي. وبقَدر ارتقاءِ الأخلاق في المجتمع يكون صلاحُه ورقيُّه، والعكسُ صحيح. والأخلاقُ والقيم هي السندُ الأساس للدَّساتير والقوانين لتنظيم العلاقاتِ داخل المجتمعات. وتُمثل الأخلاقُ والقيم ركنًا رَكينًا في رسالة الإسلام التي جاء بها خيرُ الأنام ومِسكُ الختام سيدُنا محمد (ﷺ) ، هديةُ الله للكون وهدايتُه للعالمين.

ولقد شاء الله الحكيم أن تتجسَّد كلُّ الكمالات البَشرية في شخصِه الشَّريف المعصوم.. فقد حازَ كلَّ الكمالات البشرية، ونالَ كلَّ مقوِّمات النبْل والأخلاق السامية؛ إنه المربي الأعظمُ والمعلِّم الأكبر، الذي جاء بدستورِ دَساتير التربية الرَّشيدة (القرآن الكريم)، ودستورِ الأخلاق التي بلغتْ أعلى درجات النُّبل والرُّقي والرشْد الحضاري.

يقول الدكتور/ محمد المهدي: "... والرسالةُ الإسلامية على الرغم من تَميُّزها في جوانبِها المتعدِّدة، فإنَّ أهمَّ ما يُميزها هو أخلاقُ النبي (ﷺ) ، فقد كانتِ المحورَ الأساس للحضارة الإسلامية كلها. وإذا كان هناك حضاراتٌ كثيرة نَمَت وتَرَعرت، ثمَّ ذبُلَت وزَالت، فإنَّ الحضارةَ الإسلامية بقيَت حتى الآن متوهِّجة، ومتألِّقة، وملهِمَة، ودافعةً لكثيرٍ من المجتمعات الإنسانية، على الرغم من بعضِ الهَنات في التاريخ الإسلامي. لقد كان الجانبُ الأخلاقي في الحضارة الإسلامية هو أهمَّ ما يُميزها عن بقيةِ الحضارات، وكانت أخلاقُ النبي الكريم شيئًا عظيمًا أبهرَ الأعداءَ قبل الأصدقاء"(٢).

ولا ريبَ في أنَّ حبوبَ لقاح القيم التي نَثَرها النبي (ﷺ) ، وبذورَ الأخلاق التي بَذَرها، وأشجارَ النُّبل التي غرسَها بأقواله وأفعاله وأخلاقه وتقريراته، في منهجه.. وفي قلبِ الناس والمجتمع؛ تَستوجب تطبيقها في دنيا الناس لتعيشَ فينا ونعيشَ فيها وبها، ومن ثمَّ يتحقَّق فينا قولُ ربنا جلَّ وعلا: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران:١١٠)، وحتى تَنجو سفينةُ البشرية إلى برِّ الأمان.

وإذا كانتِ القواعدُ الأخلاقية هي فنَّ الحياة، وميزانَ الحضارة، وبَوْصَلةَ السلوكِ الظاهر التي توازي بوصلةَ الضَّمير الخفي؛ فإنَّ مكارمَ العَظمة الأخلاقية قد تجسَّدت في أخلاقِ النبي الكريم، التي تَزاوجَت فيها أقوالُه وأفعالُه بشكل لم يسبقْ له نظيرٌ مِن قبل، ولن يحدث له مثيلٌ مِن بعد.

(٢) أ.د/ محمد عبد الفتاح المهدي: أخلاق النبي (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ) وصفات النفس السوية، برنامج الإسلام والحياة، بإذاعة القرآن الكريم من القاهرة، حلقة من تقديم الإذاعي القدير أ/ رضا عبد السلام.

عالميةُ الرسالة وإنسانيةُ الرَّسول (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ):

إنَّ أخلاقَ النبي العظيم قد أبهرتِ الأعداءَ قبلَ الأصدقاء. نعم، ربما مَن يحبُّ رسولَ الله (عليه الصلاة والسلام) يتحيَّر له، ويتحمَّس لمدحِه، والثناءِ عليه، والانبهارِ بأخلاقه، بيدَ أنَّنا "لكي نكون مَوضوعيّين نحتاج إلى أن نرى بعيونٍ محايدة، ذلك أنَّ العيون المحايدَة أثبتتْ للنبي (ﷺ) عظمةَ أخلاقه وارتقاءها وسموَّها لأقصى درجات العظمة والارتقاء والسُّمو، واكتمالها ونموها لأقصى درجاتِ الاكتمال والنُّمو، وتوازنها لأقصى درجاتِ التوازن. وهنا تتجلَّى مَكامنُ العظمة! لماذا؟؛ لأنَّ بعضَ عظماء التاريخ ربما يتحلّون ببعضِ السمات الأخلاقية العليا، فبعضُهم كان شجاعًا.. وبعضُهم كان رحيمًا.. وبعضُهم كان قويًّا.. وبعضُهم كان متسامحًا...، ولكنْ لا ترى هذا التكامل، وهذا التوازن، وهذا النُّضج، وهذا الاكتمالَ كما كان في شخصية النبي (ﷺ) . والسؤالُ المُلحُّ هنا من جانب علم النفس وعلم الاجتماع: كيف ليتيمٍ عاشَ مثلَ هذه الظروف القاسية جدًّا، حتَّى يتحلَّى بهذه المنظومة الأخلاقية على هذا المستوى الذي لا يوجَد له نظيرٌ من قبْل ومِن بعد؟! فلقد وُلِد يتيمَ الأب، ثمَّ ماتتْ أمُّه في بواكير حياته، ثمَّ تولّاه جدُّه ثمَّ مات، فتولّاه عمُّه.. وهنا تتجلى المعجزةُ الإلهية لرسول الله؛ فلم يُربِّه أبوه، ولم تُربِّه أمه... إلخ؛ بل ربَّاه الله تعالى، وأدَّبه بأدبِ القرآن. ولنا أن نتخيَّل أنَّ إنسانًا قام بتربيتِه ربُّ العالمين، فإننا نتوقَّع كلَّ مستويات الكمال والارتقاء والسُّموق والسُّمو في شتى جوانبِ الأخلاق، بالشَّكل الذي رأيناه في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام. ولمَ لا، وقد مدحَه اللهُ بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤)، وحين يمدحُ أحدٌ أحدًا فأنتَ ترى مَن المادح، وتُصبح قوةُ المدح مِن قوةِ المادح، ومِن عظمتِه.. فإذا كان اللهُ سبحانه قد وصفَه في عَلياءِه بأنه على خُلُق عظيم، فإنه يُشير إلى معجزةٍ أو آية عُظمى في الأخلاق. تقول السيدةُ عائشة (رضيَ اللهُ عَنْها) التي عاشتْ معه وخالطتْه في كلِّ تفاصيل حياته: (كَانَ خُلُقُه الْقُرْآن)[٣]؛ لذلك فحين تبحثُ عن أخلاقِه فإنه يسهلُ عليك أن تراها في الآياتِ القرآنية، وفي الأحاديث النبوية.. في أقواله.. في أفعاله.. في خِلاله... إلخ. والسببُ في ذلك أنَّ الرسول لم يكن مُنَظِّرًا ولم يكن فيلسوفًا، ولم تكنْ أقواله مُنفصلةً عن أفعاله أبدًا، فكلُّ كلمة قالها، وما وردَ بشأنه في القرآن؛ تَراه ماثلًا عَيانًا بيانًا في تجسيدٍ حيٍّ في شخصيته. وهذا أمرٌ مُعْجز؛ لأنه ربما قال الفلاسفةُ والمفكرون والمصلحون –في كثيرٍ من العصور– كثيرًا من الكلام الجميل والعظيم، بيدَ أنَّ ما قالوه لم يكن ماثلًا في واقع حياتهم، أما الرسولُ (ﷺ) فكان كلُّ كلمة قالها أنموذجًا حيًّا متجسِّدًا في سلوكه وفي حياته"[٤]، وكانت حياتُه كلُّها صفحةً شَريفة ومفتوحة لكي يتعلمَ منها الجميع.

وهكذا، فنحن إذًا إزاءَ حالةٍ فريدة، فالمؤدِّب هو الله، والمؤدَّب هو رسولُ الله، والواسطةُ هو جبريلُ الأمينُ عليه السلام، إنها كمالاتٌ وكراماتٌ ومُعجزات، ولعلَّ هذا ما يفسِّر إقبالَ ملايين البشر في شتى أنحاء العالم على سيدِنا محمد، وتوْقَ أفئدتِهم إليه، وتعلُّقَ قلوبهم به، وهُم لم يروْنَه من قبل، حيث لا صورةَ له تربطُهم به، وإنما الجامعُ والجاذبُ والمحفِّز لهم صالحَ الأخلاق التي جاء ليتمَّها بأمرِ ربِّ العالمين.

---

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٤) أ.د/ محمد عبد الفتاح المهدي: أخلاق النبي (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ) وصفات النفس السوية (مرجع سابق) بتصرف.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا الصِّيَامَ وَالقِيَامَ وَصَالِحَ الأَعْمَالِ يَا رَبَّ العَالَمِينَ... اللَّهُمَّ أَدْخِلْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى أَهْلِيكُمْ وَأَنْجَالِكُمْ وَأَحْفَادِكُمْ وَذَرَارِيكُمْ أَجْمَعِينَ الفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَالحُبُورَ، وَالسَّعَادَةَ العَامَّةَ التَّامَّةَ الكَامِلَةَ الشَّامِلَةَ الدَّائِمَةَ المُسْتَقِرَّةَ المُسْتَمِرَّةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ... نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ لَنَا وَلِأَوْلَادِنَا، وَلِمُجْتَمَعِنَا وَلِشَعْبِنَا.

اللَّهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا، شِمَالَهَا وَجَنوبَهَا، طُولَهَا وَعَرْضَهَا وَعُمْقَهَا، بِحارَهَا وَسَمَاءَهَا وَنِيلَهَا، وَوَفِّقْ يا رَبَّنَا قِيادَتَهَا وَجَيْشَهَا وَأَمْنَهَا وَأَزْهَرَهَا الشَّرِيفَ، وَعُلَمَاءَهَا، وَاحْفَظْ شَعْبَهَا، وَبِلادَ المُحِبِّينَ يا رَبَّ العالَمِينَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ على سَيِّدِنا وَمَوْلانا مُحَمَّدٍ، وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

خادم الجناب النبوي

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

واتس آب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman٥٥٥٥٥@gmail.com

متابعة الصفحة الرسمية، وعنوانها: (الدكتور أحمد علي سليمان)؛ يضمن لك كل جديد /https: //www.facebook.com/drahmedalisoliman